**المحاضرة الثالثة:**

**الاتجاه التاريخي في الرواية العربية**

* **1- مفهوم الرواية التاريخية:**

الرواية التاريخية ضرب من [الرواية](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9) يمتزج فيه التاريخ بالخيال، تهدف إلى تصوير عهد من العهود أو حدث من الأحداث الضخام بأسلوب روائي سائغ مبني على معطيات التاريخ، حيث لعبت الرواية التاريخية في الأدب العربي دورا بارزا في تحقيق أهداف سعت إلى بلوغها، فقد هدفت إلى بث الروح في الماضي من أجل قراءة الحاضر واستشراف المستقبل والاستفادة من عبر التاريخ.  
وإذا كان التاريخ يعرف بأنه: الأحداث والوقائع التي وقعت في الأزمان الماضية، فالرواية التاريخية كما يعرفها الدكتور محمد القاضي، هي “نصّ تخيّلي نسج حول وقائع وشخصيات تاريخية”.

أما عند الكاتب سعيد يقطين فالرواية التاريخية هي: “**عملٌ سردي يرمي إلى إعادة بناء حقبة من الماضي بطريقة تخيّلية حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة**“.

فالمادة التاريخية تحضر بقوة في الرواية التاريخية، ولكنها غير جامدة، بل تقدم بطريقة فنية وإبداعية، لذلك الذين درسوها يلجؤون إلى المقارنة بين السرد التاريخي والرواية التاريخية مفرقين بينهما من جهة الحقيقة والخيال. فالسرد التاريخي يقدم الحقيقة ويسرد الأحداث المطابقة للوقائع، بينما الرواية التاريخية أقرب إلى التخيل و الإبداع.

يقول الأردني محمد أحمد القضاة أن "هناك نوعين من الرواية التاريخية: النوع الأول تعيدك فيه الرواية إلى التاريخ بكل تفاصيله وطقوسه، وكأنها تردك إلى الحياة فيه، أما النوع الثاني فإنه يستعيد المناخ التاريخي فقط ثم يترك لنفسه قدرًا من الحرية النسبية داخل إطاره".

**2- عوامل ظهور الرواية التاريخية :**

- التأثر بالقصص التاريخية الرومانسية الانجليزية والفرنسية، على طريقة "والتر سكوت" و"الكسندر دوماس الأب"، حيث عزب بشارة شديد توماس الأب " دي مونت كريستو " ونشرها في القاهرة عام 1871 وكذا عرب الحداد رواية " الفرسان الثلاثة " عام 1888.([[1]](#footnote-1))

- اضافة إلى ذلك الاستعداد التام للروائيين العرب في المرحلة الأولى من تجريب الكتابة الروائية إلى العودة إلى التاريخ العربي للتعزير بعد اجتياح المد الغربي .

- من الأسباب أيضا التي دفعت العرب إلى كتابة الرواية التاريخية في مرحلة مبكرة هو محاولة الامتداد مع طبيعة المسرودات الموجودة سابقا كالسيرة الشعبية والمقامة لما فيهما من مغامرة و ادهاش للقارئ وقصص بطولة وغيرها، فحاولت الرواية التاريخية أن لا تصدم القارئ مباشرة وأن تراعي ذوقه الذي لم يتطور بشكل ملحوظ بعد.

**3- أعلام الرواية التاريخية:**

قسم الباحثون الروايات التاريخية العربية إلى ثلاثة أجيال، وهذا من منطلق اختلاف . الرواية التاريخية بينهم.

**3-1 - من أهم الروائيين في مجال الرواية التاريخية في الجيل الأول :**

**\* سليم بطرس البستاني :** ( 1848-1884 ) هو ابن بطرس البستاني صاحب عدة جرائد ومجلات منها مجله "الجنان" التي كان ينشر فيها سليم البستاني. ولقد رائدا في كتابة القصة وهو من الأوائل الذين كتبوا القصة التاريخية، تذكر منها : زنوبيا ملكة تدمر 21873 بدور 1872، الهيام في ربوع الشام 1874، الإسكندر، قيس وليلي .

**\* فرح أنطوان :** نشر قصصا اجتماعية من قبل، وتتناول روايته التاريخية "أورشليم الجديدة" أو فتح العرب لبيت المقدس 1904، زحف العرب المسلمين على بلاد الشام وحصارهم ببيت المقدس، ثم سفر الخليفة عمر بن الخطاب ليتسلم مفاتيحها من البطريرك صفرونيوس، وفي الرواية شرح أسباب ضعف الإمبراطورية الرومانية، لكن الرواية لم توثر كثيرا لأنها تناولت نزعات ومشاكل اجتماعية غربية لا علاقة لها بالمجتمع العربي.([[2]](#footnote-2))

**\* يعقوب صروف:** كان قد نشر قصصا اجتماعية من قبل ويتحدث في روايته التاريخية در لبنان " 1907 عن الفتنة التي وقعت في 1860 بين الدروز والمارونيين بتحريض من الدولة العثمانية و السيطرة على البلاد في ذلك الوقت، ويتخلل القصة حدث غرامي يقع بين هر ماري برمونت والأميرة سلمى ابنة الأمير عباس الشهابي([[3]](#footnote-3)) .

\***- جرجي زيدان :** ( 1861-1914 ) ، هاجر إلى مصر ونشط فيها عام 1881 ، صاحب مجلة الهلال بمصر ، أصدرها عام 1892 ثم أنشأ دار نشر بالاسم نفسه ( الهلال) ، له زخم كبير من المنشورات في الصحافة والتاريخ الأدب ، له اثنان وعشرون رواية من بينها رواية اجتماعية واحدة وهي " جهاد المحبين " ، أما رواياته التاريخية فهي : المملوك الشارد 1891 ، أسير المتمهدي 1892 ، استبداد المماليك 1892-1893 ، أرمانوسة المصرية 1895 1899 ، 17 رمضان 1900 ، غادة كربلاء 1901 ، الحجاج بن يوسف 1902 ، فتح الأندلس.1903 ([[4]](#footnote-4))

**-خصائص الكتابة التاريخية لدى الجيل الأول :**

- تفتقر هذه الروايات إلى الوحدة الفنية داخل الوحدة التاريخية للموضوع المعالج ، فقد كان نشاط الكاتب يرتكز بالأساس على قدرته بالخروج من فكرة إلى أخرى بحيوية من أجل إرضاء ذوق الجمهور ووضعه في حالة مريحة ليقضي وقته بها([[5]](#footnote-5)).

- غالبيتها عادت إلى أحداث من التاريخ العربي الإسلامي

- إدخال قصص الحب والمغامرة في متن الأحداث والتركيز عليها وغالبا ما تنتهي بالانتصار للحب وتكون النهايات سعيدة - الإسهاب في عنصر التشويق بالتماطل في السرد والوصف لإحداث عنصر المفاجأة .

- عدم ترك الحرية للشخصيات ، حيث يشعر القارئ أنها محركة ومقيدة من طرف الكاتب ولا تنفلت من بين يدبه .

- تهدف " هذه الروايات إلى جانب هدفها التعليمي ، إلى تسلية القراء وتفكههم بأحداث مشوقة وأخلاق تنطري على قيمة نفعية.([[6]](#footnote-6))

"- كانت روايات جرجي زيدان روايات ذات صبغة واحدة ، فالمؤلف يختار موضوعات وشخصيات ذات شهرة تاريخية ، ويقيم من خلالها أحداث روايته التي تكون مقيدة بالأماكن التاريخية وبالأحداث والشخصيات التاريخية كذلك ، وذلك في إطار موضوع غرامي تقف فيه العوائق بين العاشقين ، ثم تزول ويجتمع الشمل مع اقتراب الموضوع التاريخي من نهایته.

وهكذا " هدف جرجي زيدان ومن سار على منهجه أمثال عبد المسيح الأنطاكي ، وعبد الحميد الزهاوي ، ومعروف الأرناؤوط في سوريا ، إلى أن يكونوا معلمي تاريخ يهتمون في دراستهم بالتاريخ باعتباره أحداثا تدور داخل إطار حضاري([[7]](#footnote-7)).

**3-2 - أعلام الجيل الثاني للرواية التاريخية :**

" قدم فريد أبو حديد وعلي الجارم ومحمد سعيد العربان ومحمد عوض وعادل كامل وعبد الحميد جودة الحار، وعلي أحمد باكثير ونجيب محفوظ عددا من الروايات التاريخية التي استوحت من التاريخ الإسلامي العربي والتاريخ الفرعوني المصري ، وتفاوتت أعمالهم على حسب فهمهم لتوظيف التاريخ في هذه الأعمال"([[8]](#footnote-8))

- فبالرغم من أن موضوع رواية عبث الأقدار لنجيب محفوظ موضوع ملحمي يتناول صراع الانسان مع القدر، مقتربا بهذا مع صراع لايوس وأوديب في المأساة اليونانية ، إلا أننا نرى فيها ملكا يتمتع بديمقراطية فكرية عالية تجعله يعجب بالطفل الذي تنبأت العرافة له من قبل بأنه سيقتله، بل أكثر من هذا يتنازل له عن العرش حيث رأه أجدر منه . وقد جاءت الرواية مرتبطة بظروف البلاد التي كانت تحكم أنذاك بديكتاتورية متسلطة مستبدة ، فكانت من ثم أحوج إلى مثل هذا الحاكم الذي يعي الصالح وينفض عن بلاده منطق التوالي والسلبية إيمانا منه بمنطق العقل والفكر وإيجابية الإنسان([[9]](#footnote-9)) .

**- خصائص الكتابة التاريخية عند الجيل الثاني :**

- " اهتم الجيل الثاني من كتاب الرواية التاريخية بإحياء الماضي القديم ، متأثرين في هذا أکثر بالرواية التاريخية التي تعرفت عليها أوربا في الفترة الرومانسية في مؤلفات " والتر سكوت " الإنجليزي و " الكسندر دوماس الأب الفرنسي.([[10]](#footnote-10))

- فيها حس قومي .

- متطورة فنيا عن رواية الجيل الأول ، تجد مثلا على أحمد باكثير ومحمد عوض وعادل كامل يحاولون تصوير انعكاس الأحداث التاريخية على الشخصيات كنماذج بشرية ، وأثرها بالتالي في تطوير الحدث الروائي وإنمانه .

وعلى هذه الملاحظة الأخيرة قامت روايات نجيب محفوظ التاريخية الثلاثة: عبث الأقدار 1939، رادوبيس 1943، وكفاح طيبة 1944، فموضوعات الروايات الثلاث موضوعات لها إسقاطات على الواقع المعاصر لها.([[11]](#footnote-11)) ومن هذا كان التاريخ في رواياته إطارا لهذا المعنى الذي تمشى مع احتياجات مرحلته من ناحية وأزمة حياته الخاصة والعامة من ناحية أخرى ثم الخروج به إلى الشمولية العامة الملتصقة بكل ما هو إنساني من ناحية ثالثة".([[12]](#footnote-12))

وبهذا يكون الاتجاه التاريخي للرواية العربية قد قطع مرحلتين إلى أن نضج فنيا بالرغم من كون روايات جرجي زيدان هي الروايات التاريخية الأشهر عربيا إلا أنها تبقى ضمن المرحلة الأولى التي أسست للاتجاه التاريخي، لكنها كانت ناقصة فنيا، وتعود شهرتها إلى غزارة الانتاج التاريخي الروائي لدى جرجي زيدان وخلو الساحة وقتها من الرواية تقريبا، وايضا الى اهتمامها بالشخصيات في التاريخ الإسلامي .

**3-3-الرواية التاريخية الجديدة (الجيل الثالث)**

 كتبت الرواية العربية التاريخ المعاصر الذي لم يكتبه المؤرخون، متطلعة إلى تاريخ سوي محتمل ، وحالمة بمدن تعطي الرواية قراءة مجتمعية ، تقدّم إجابات بقدر ما تطرح أسئلة ، ومن أجل ذلك غدت الرواية " عملية استبطان مستمر لاستجلاء اللحظات التي ينشق فيها الإنسان عن ذاته ويحاور أشياءه بعيدا عن جوهره الإنساني العصي عن الثبات .

هذه المرحلة تمثل مرحلة الرواية الحديثة ، حيث عاد كتاب الرواية الى التاريخ باعتباره مسلكا تجريبيا، ومثل هذا المنحى كل من جمال الغيطاني ويوسف العقيد في مصر ، واسيني الاعرج وبوجدرة والحبيب السايح والطاهر وطار في الجزائر ، وبن سالم حميش والميلودي شلغوم في المغرب .

وقد اعتمد هؤلاء على استثمار المادة التاريخية من منظورهم الخاص، محاولة منهم إسقاط الماضي على الحاضر على أساس الاستمرارية .وكل من هؤلاء انتهج طريقا خاصا به في استثمار المادة التاريخية ، ليصبح التخييل التاريخي ناتجا عن العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال والتاريخ المدعم بالوقائع ، فانتقلت الرواية من تعليمية الى نفعية الى مساءلة وإعادة كتابة لتفضح ماسكت عنه التاريخ ، سردا تاريخا آخر على لسان شخصيات تنتمي للهامش ،ولا تؤرخ للمنتصر أو للسلطان.

**4- أعلام الرواية التاريخية الجزائرية المعاصرة:**

لقد استطاعت الرواية الجزائرية أن تفرض نفسها وتحقق كينونتها سواء في سبقها وجوديا – مع أول نص روائي “الحمار الذهبي ” لصاحبه لوكيوس أبوليوس قديما ومرورا بالعمل الروائي “إدريس ” لعلي الحمّامي  ووصولا الى الرواية الحديثة والمعاصرة سواء المكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية، مع الطاهر جاووت ” رواية اختراع القفار “أو ما كتبه كل من الطاهر وطار وابن هدوقة و واسيني الأعرج في “كتاب الأمير “أو حبيب السايح في “كولونيل الزبربر” – أو بحثا عن المضامين التاريخية والفلسفية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري عبر محطات تاريخية هامة و متباينة ، ناهيك عن النقلة النوعية والفنية التي امتازت بها الكتابة السّردية في الجزائرومن بين الذين أبدعوا في هذا المجال نذكر:

**\*واسيني الأعرج (كتاب الأمير ، مسالك أبواب الحديد )**

        يعد واسيني من ابرز الروائيين الجزائريين وهو أكثرهم قربا من حرب فترة حرب التحرير ، وهذا ما جعله يستلهم التاريخ الوطني ليجعل منه مادة روائية بامتياز. فتوظيف التاريخ عنده ليس عشوائيا ، بل ملمحا من ملامح التجريب ( وقد بلغ واسيني قمة التاريخ محاولا مزج المكون التاريخي بالمكون الروائي ،إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت بشكل واضح في الروايات الأخيرة التي يكتبها ويحاول من خلالها مساءلة التاريخ، مما يثير جدلا نقديا كبيرا، إذ ثمة فارق بين التاريخ والمتخيل . وهذه الرواية (كتاب الأمير ) أثارت الكثير من الجدل في الأوساط الأدبية والنقدية )  وهي ليست الأولى التي استقت مادتها من التاريخ ولكنها أول رواية نالت السبق في الكشف عن بعض الحقائق المنسية في حياة شخصية الأمير عبد القادر الجزائري .

        هذه الرواية  لا تقول التاريخ ولا تتقصى الأحداث والوقائع لاختبارها، بل تسند على المادة التاريخية، وتدفع بها إلى قول ما لا يستطيع التاريخ قوله. تستمع إلى أنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم، إلى وقع خطى مونسيني ورديبوش، قس الجزائر الكبير، وهو يركض باستماتة بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز. وهي رواية فوق كل هذا، درس في حوار الحضارات ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام، بين الأمير من جهة ومونسني ورديبوش من جهة ثانية، تفند نظرية تصادم الحضارات إذ أن روح التسامح الإنساني تجمع شخصين مختلفين ديانة وهي بذلك تجسد صورة من صور التعايش .

        ولقد استطاع “واسيني الأعرج” أن ينقل لنا صورة حية للواقع الأليم الذي واجهه الأمير عبد القادر الجزائري ومعاناته النفسية أيام الجهاد، ومعاناته أيام الأسر .  والرواية نقلة نوعية للأدب الروائي العربي، بالرغم من وجود تباين في قراءة هذا النص من خلال أكثر من  ناقد أو قارئ، إلا أن ذلك لا يقلل من شأن هذا الكتاب ومن الجهد الطيب الذي قام به المؤلف بتسليطه الضوء على حقبة تاريخية من النضال الجزائري ضد الفرنسيين، وإعادة الأذهان لأحد أبطال الجهاد المبارك الأمير عبد القادر الجزائري.

    يروى واسيني سيرة الأمير عبد القادر الجزائري والقس ديبوش على لسان راويين أحدهما هو جون موبي والآخر غير مذكور الهوية ومن خلالهما استطاع واسيني بسرده العذب أن يقدم صورة جميلة لكل منهما, فالأمير ذاك الفارس النبيل الذي قدم مصلحة بلاده على أية مصالح شخصية قاوم الفرنسيين في معارك دامية وكبّدها خسائر بالجملة بمعداته الضعيفة, أشعل الحب في نفس كل من اتبعوه و منحوه صفاءهم وثقتهم وحبهم الكبير واتخذوه مثالا وقدوة وقائدا, تتكرر اللقاءات والزيارات من قبل القس للأمير وفي فلاش باك متكرر يقص الأمير أحداث الحرب والانتصارات والهزائم والأخطاء.

يقول واسيني عن كتاب الأمير ما أردت قوله في هذا العمل أن مسألة التسامح الديني موجودة، وقد لعبت دوراً كبيراً في العلاقات الصحيحة بين مختلف الطوائف والمذاهب. وفي الحقيقة إن كتابة هذه الرواية جاءت نتيجة مجموعة من التساؤلات حول سؤال الأديان، وسؤال حوار الحضارات. مؤكداً فيها على حوار الحضارات الذي يتم حتى في أصعب الظروف، والرواية كلها مبنية في هذا السياق. ‏

**\*الحبيب السايح ( رواية كولونيل الزبربر)**

       يتبوأ إنتاج الحبيب السايح الروائي مكانة كبيرة عند الدارسين والنقاد ، إذ تأسس كقطب رحى في عملية انهاك المضمر الإبداعي ، حتى يخرج من تستراته الكامنة خلف اللاوعي بإنتاجات الوعي والذاكرة ،حيث تلازم كل عملية إبداعية عملا نقديا يزيد من المبدع تألقا ومتعة في الكتابة . ولم يكن السايح في منأى عن تاريخ الجزائر انطلاقا من الثورة ومرورا بالعشرية السوداء ووصولا إلى إسقاط ذلك كله على الواقع المعيش مستدعيا ومسائلا التاريخ زمانا ومكانا وأحداثا وشخصيات ..

وفي الفعل الكتابي للتاريخ يرى السايح أنه ليس تسجيلا للواقع ، بل هو نصا مختلفا نابعا من موقع فكري وتاريخي تجاه محنة الجزائر، لذلك لم تكن الرواية سوى نصا يصور واقعا آخر مختلفا . ففي رواية” كولونيل الزبربر” يجمع الحبيب السايح بين ذاكرتين ذاكرة التاريخ وذاكرة الجغرافيا في سرد هذه الرواية ،الزبربر المكان الذي كان ابان الثورة معقلا لجيش التحرير (1954م – 1962 م)، يصبح مركزا لكتائب الجامعات المسلحة 1992م .

تعرض الرواية مشاهد تاريخية كبرى على غرار  01 نوفمبر واندلاع الثورة ، إضراب الطلبة 19 ماي 56 ،احداث 1958 معركة الحدود (خطي شال وموريس ) ،حادثة نقل الأسير انطوان ،استشهاد زيغود يوسف 25/09/1956، استشهاد سي مسعود شيهاني 25/10/1955 ومقتل بن بو العيد 22/03/1956 ، واستشهاد عباد رمضان 26/12/1957 .(مفاوضات بين الوفدين الجزائري والفرنسي ) ثم الاستفتاء فالاستقلال .ثم إعدام العقيد شعباني .أما بالنسبة لكولونيل الزبربر فقد عاش هو كذلك ذكريات في جبل الزبربر محاولا القضاء على الجماعات المسلحة .

       هذه الرواية هي أول نص روائي يتجرأ على المسكوت عنه في حرب التحرير والعشرية السوداء فجبل الزبربر يحمل الكثير من أسرار  حرب التحرير ،والعشرية السوداء ،فالسايح يتعرض الى بعض التفاصيل التي لم يذكرها التاريخ ، تعكس اخطاء وتجاوزات فيقدم صورة جديدة واقعية عنها ، حيث ان البطل (بوزقرة )عاش جحيم الثورة وذاق مرارة الخيانة .

**خاتمة**

     وعليه يمكن القول، أنه توجد علاقة وطيدة بين الأدب والرواية والسّرد التاريخي ، لا يفصل بينها سوى شعرة رهيفة  تمنح لكل منها اختصاصه وخصوصيته ،فللرواية مهما كان طابعها فهي لا تسرد سوى التاريخ ، مادامت لا تستطيع الاستغناء عن الزمان والمكان والشخصيات والأحداث ، وما التاريخ إلا تلك العناصر المكونة للسرد .وهي أي الرواية بدون ذلك رؤى فكرية وفلسفية مجردة .

    إن الرواية في محاورتها للتاريخ تحاول إثارة الحاضر استنادا الى ما حدث في الماضي ، تهدف إما الى منح تلك القداسة الى ذلك الماضي الذي لا تراه الا مجيدا ، وإما الى نقده وتبيان ما أغفله التاريخ أو تجاوزه ، أو لم يمنحه حقه باعتبار أن التاريخ يكتبه المنتصر. ومنه فإن الرواية تحاول فهم بعض ما يعتمل راهنها ،استنادا إلى ما عاشته في ماضيها.

      فالتعاطي مع التاريخ ليس معناه الاحاطة بهالة من القداسة ، ولا تعني معاداته كليا ، لأن التعامل والبحث عن التفاصيل وعدم التسرع في الحكم أمور في غاية الأهمية ، بل دورها ووزنها كبير لحظة الحديث عن علاقة الرواية بالتاريخ .

1. () الصادق قسومة، الرواية، مقوماتها، ونشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2000، ص: 81، 82. [↑](#footnote-ref-1)
2. () المرجع نفسه، ص: 80، 81 [↑](#footnote-ref-2)
3. () المرجع السابق، ص: 82-83. [↑](#footnote-ref-3)
4. () المرجع نفسه، ص: 87-99. [↑](#footnote-ref-4)
5. () المرجع نفسه، ص: 83 [↑](#footnote-ref-5)
6. () السعيد الورقي، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، ص 30. [↑](#footnote-ref-6)
7. () المرجع نفسه، ص: 32. [↑](#footnote-ref-7)
8. () المرجع نفسه، ص: 31-32 [↑](#footnote-ref-8)
9. () المرجع السابق، ص: 33. [↑](#footnote-ref-9)
10. () المرجع نفسه، ص: 32. [↑](#footnote-ref-10)
11. () المرجع السابق، ص: 33 [↑](#footnote-ref-11)
12. () المرجع السابق، ص: 34 [↑](#footnote-ref-12)